الفصل الأول
تكريمه بالخلق والرعاية

وفيه أربعة مباحث:

- **المبحث الأول: أصل الإنسان**

المطلب الأول: مادة الخلق

المطلب الثاني: تحسين صورته

- **المبحث الثاني: أطوار خلق الإنسان**

المطلب الأول: آيات الخلق

المطلب الثاني: تفسير الآيات وآراء العلماء

- **المبحث الثالث: تكريمه بمهمته الدينية**

المطلب الأول: العبادة

المطلب الثاني: الامانة

- **المبحث الرابع: تكريمه بمهمته على الارض**

المطلب الأول: الخلافة

المطلب الثاني: العمارة

المبحث الأول

أصل الإنسان

المطلب الأول: مادة الخلق

خلق الله تعالى آدم (عليه السلام) من الأرض أي مما تحويها الارض وفي ذلك قال تعالى: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «**النَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ**»[١].

ثم جبلت تربتها بالماء فكانت طيناً وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢].

وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ [الصافات: ١١]. واللازب جاء في اللغة: «ولَزِبَ الطينُ يَلْزُبُ لُزُوباً، ولزُبَ: لَصِقَ وصَلُب، وطينٌ لازبٌ أي لازقٌ»[٢].

ثم تغيّر الطين اللازب: فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر: ٢٦]. والحَمأُ أي: «الطين الأسود»[٣]، أو «الطين الأَسود المُنتن»[٤].

«والصَّلْصالُ مِن الطِّين: ما لم يُجْعَل خزَفاً، سُمِّي به لَتَصلْصُله، وكلُّ ما جَفَّ من طين أو فَخَّار فقد صَلَّ صَلِيلاً، وطِينٌ صِلاَّل ومِصْلاَلٌ أَي يُصَوِّت كما يصوِّت الخَزَفُ الجديد»[٥].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**. ج١: ص٧٣٨. (بتصرف)

(٣) الرازي، **مختار الصحاح**. ص١٦٧

(٤) **المصدر السابق**، ج١: ص٦١.

(٥) ابن منظور، **لسان العرب**. ج١١، ص٣٨٢.

وحيث أن هذا الطين كان مخلوطاً بالرمل فصار يَتَصَلْصَلُ إذا جف، فإذا طُبخ بالنار فهو الفخار[1].

هكذا خلق الله تعالى آدم عليه السلام من الأرض (من ترابها)، ثم جُبل بالماء فكان طيناً ثم صار طيناً أسود منتناً وكون ترابه من الأرض التي بعضها رمل لمّا جبل كان صلصالاً كالفخار وبيّن ذلك النبي (ﷺ).

فعن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «**إنّ اللَّهَ تعالى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَها مِنْ جَميعِ الأَرْضِ فجاءَ بنو آدَمَ على قَدْرِ الأَرْضِ جاءَ منْهُمُ الأَحْمَرُ والأَبْيَضُ والأَسْوَدُ وبَيْنَ ذلكَ والسَّهْلُ والحَزْنُ والخَبيث والطَّيِّبُ وبَيْنَ ذلكَ**»[2].

و«قوله (ﷺ) «**إن الله خلق آدم من قبضة**» بالضم ملء الكف وربما جاء بفتح القاف، ومن ابتدائية متعلقة بخلق أو بيانية حال من آدم، «**قبضها**» أي أمر الملك بقبضها، «**من جميع الأرض**» يعني وجهها، «**فجاء بنو آدم على قدر الأرض**» أي مبلغها من الألوان والطباع، «**فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود**» بحسب ترابهم، وهذه الثلاثة هي أصول الألوان وما عداها مركب منها وهو لمراد بقوله «**وبين ذلك**» أي بين الأحمر والأبيض والأسود باعتبار أجزاء أرضه، «**والسهل**» أي ومنهم السهل أي اللين «**والحَزْنُ**» بفتح الحاء وسكون الزاي أي الغليظ، «**والخبيث**» أي خبيث الخصال «**والطيب**» على طبع أرضهم وكل ذلك بتقدير الله تعالى لوناً وطبعاً وخلقاً»[3].

قال ابن القيم رحمه الله[4]: «لما اقتضى كمال الرب تعالى (جل جلاله) وقدرته التامة وعلمه المحيط ومشيئته النافذة وحكمته البالغة تنويع خلقه من المواد المتباينة، وأنشأهم من الصور

---

(١) ينظر: الرازي، **مختار الصحاح**. ص٣٧٥.

(٢) أبو داود، **سنن ابي داود**. كتاب السنة. باب في القدر. ح (٤٦٩٣). ص٨٤٧. والترمذي، **سنن الترمذي**. كتاب تفسير القرآن عن رسول الله (ﷺ). باب ومن سورة البقرة. ح (٢٩٥٥). ص٦٦٢. (قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح).

(٣) المباركفوري، **تحفة الأحوذي**. ج٨: ص٢٣٣.

(٤) سبق ترجمته، ص٩١.

المختلفة والتباين العظيم بينهم في المواد والصور والصفات والهيئات والأشكال والطبائع والقوى، اقتضت حكمته أن اخذ من الأرض قبضة من التراب ثم ألقى عليها الماء فصارت مثل الحمأ المسنون ثم أرسل عليها الريح فجففها حتى صارت صلصالاً كالفخار، ثم قدر لها الأعضاء والمنافذ والأوصال والرطوبات وصورها فأبدع في تصويرها وأظهرها في أحسن الأشكال وفصلها أحسن تفصيل مع اتصال أجزائها وهيأ كل جزء منها لما يراد منه وقدره لما خلق له عن أبلغ الوجوه ففصلها في توصيلها وأبدع في تصويرها وتشكيلها، ومعنى كل ذلك صنعته تبارك وتعالى في قبضة من تراب ثم اشتق منه صورة هي مثله في الحسن والجمال ليسكن إليها وتقر نفسه وليخرج من بينهما من لا يحصى عدده من الرجال والنساء سواه»[1].

ولذلك لمّا وصف الله تعالى خلق آدم في القرآن في كل مرة وصفه بأحد أطواره التي مرَّت بها طريقة خلقه وتكوينة طينته فلا تعارض في آيات القرآن، ثم أصبح أبناء آدم بعد ذلك يتكاثرون وصار خلقهم من الماء وهو المني الذي يخرج من الرجال والنساء وهو معروف، وكما بيّنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا**﴾ [الفرقان: ٥٤].

وفي ذلك أيضاً مراحل للخلق يبنها قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ**﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وفيما سبق اتضح أن خلق آدم (عليه السلام) مرّ بثلاث مراحل، أما المرحلة الأولى من خلق آدم فيمكن الاصطلاح عليها بالمرحلة الترابية من قبضة تراب من جميع الأرض

---

(١) ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله. **التبيان في أقسام القرآن**. دار الفكر. ص٢٠٢. (بتصرف)

فكانت مخلطة فلذلك كان في الناس الحزن والسهل والأسود والأبيض وما نراه من اختلاف الناس، ثم جاءت المرحلة الثانية والتي هي مزج هذا التراب بالماء حتى أصبح طيناً لازباً، ثم بدأت المرحلة الثالثة وهي ترك الطين اللازب مدة حتى يجف ويصبح كالصلصال بحيث لو قرعته لأحدث صوتاً، ثم إن الله عز وجل نفخ في هذا الجسد الذي خلقه وهو جسد آدم عليه السلام نفخ فيه تبارك وتعالى من روحه ثم أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام سجود تكريم كما بينا ذلك في الباب الأول من هذه الدراسة.

المطلب الثاني: تحسين صورته

إن الله تعالى خلق الإنسان ليس كخلق أي كائن آخر بل كرّمه وعدله وقوّمه، قوّامة تليق بنوع الإنسان، فهو تقويم خاص بالإنسان لا يشاركه فيه غيره من المخلوقات، فهو تعديل للقوى الظاهرة والباطنة بحيث لا تكون إحدى قواه موقعة له فيما يفسده، ولا يعوق بعض قواه البعض الآخر عن أداء وظيفته، فإن غيره من جنسه كان دونه في التقويم، لكي يكون موضعاً للأوامر الربانية وأهلاً للتكليف(١).

فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «**خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِه طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنْ الْمَلائِكَة جُلُوسٌ فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ فَقَالَ السَّلامُ عَلَيْكُمْ فَقَالُوا السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ فَلَمْ يَزَلْ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الآنَ**»(٢).

والمعنى أن الله تعالى أوجده على الهيئة التي خلقه عليها لم ينتقل في النشأة أحوالاً ولا تردد في الارحام أطواراً كذريته، بل خلقه الله رجلاً كاملاً سوياً من أول ما نفخ فيه الروح على

---

(١) ينظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**. ج٣٠: ص٤٢٤.

(٢) **متفق عليه**، البخاري. **صحيح البخاري**. كتاب الاستئذان. باب بدء السلام. ح (٥٨٧٣). ج٥: ص٢٢٩٩. ومسلم. **صحيح مسلم**. كتاب الجنة. باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير. ح (٢٨٤١). ص١١٤١.

صورته التي كان عليها في الأرض، وتوفي عليها وكانت صورته في الجنة هي صورته في الأرض لم تتغير، ثم عقب ذلك بقوله «**طوله ستون ذراعاً**» فعاد الضمير أيضاً على آدم وقيل معنى قوله على صورته أي لم يشاركه في خلقه أحد بخلاف بنيه فإن كلا منهم يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً وأعصاباً عارية ثم مكسوة لحما ثم حيواناً مجننا لا يأكل ولا يشرب ثم يكون مولوداً رضيعاً ثم طفلاً مترعرعاً ثم مراهقاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً[(١)].

وعن أبي هريرة (ﷺ) قال: «وفي حديث ابن حاتم عن النبي (ﷺ)» قال: «**إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِه**»[(٢)].

واختُلف في الضمير على من يعود فالأكثر على أنه يعود على المضروب أي على صورة المضروب لما تقدم من الامر بإكرام وجهه، ولولا أن المراد التعليل بذلك لم يكن لهذه الجملة ارتباط بما قبلها[(٣)].

لكن النووي[(٤)] ذكر بأن هذا الحديث من أحاديث الصفات وأن من العلماء من يمسك عن تأويلها ويقول نؤمن بأنها حق وأن ظاهرها غير مراد ولها معنى يليق بها وهذا مذهب جمهور السلف وهو أحوط وأسلم، وهناك من يرى انها تتأول على حسب ما يليق بتتريه الله تعالى وإنه ليس كمثله شيء[(٥)].

أما ابن بطال[(٦)] فقد ضعّف الرأي الذي يقول بأن الضمير يعود إلى الله تعالى وقال: «فالهاء على هذا الوجه كناية عن المضروب في وجهه، وذهب طائفة إلى أن الهاء كناية

---

(١) ينظر: ابن حجر، **فتح الباري**. ج٢٠: ص٧. والنووي، **المنهاج**. ج٩: ص١٨١. والمناوي، **فيض القدير**. ج١٣: ص١٠٨.

(٢) مسلم. **صحيح مسلم**. كتاب البر والصلة والآداب. باب النهي عن ضرب الوجه. ح (٢٦١٢). ص١٠٥٠.

(٣) ينظر: ابن حجر، **فتح الباري**. ج١٧: ص٢٦٢. والمناوي، **فيض القدير**. ج٧: ص١١.

(٤) سبق ترجمته.

(٥) ينظر: النووي، **المنهاج**. ج٨: ص١٦٥.

(٦) سبق ترجمته.

عن الله تعالى وهذا أضعف الوجوه، لأن حكم الهاء أن ترجع إلى أقرب المذكور، إلا أن تدل دلالة على خلاف ذلك، وعلى هذا التأويل يكون معنى الصورة معنى الصفة كما يقال: عرفني صورة هذا الأمر أي صفته ولا صورة للأمر على الحقيقة إلا على معنى الصفة، ويكون تقدير التأويل أن الله خلق آدم على صفته أي خلقه حياً عالماً سمعياً بصيراً متكلماً مختاراً مريداً، فعرفنا بذلك إسباغ نعمه عليه وتشريفه بهذه الخصال(١).

وهذا ما نراه من أرجح الأقوال، فعليه يكون أمر النبي (ﷺ) لمن قاتل غيره أو ضرب عبده أن يجتنب الوجه إكراماً لآدم، لمشابهة المضروب له، فلا يضرب صورة خلقها الله بيده، فانتسب إلى هذا العبد، ومراعاة لحق الأبوة، وتفضيل الله لها حين خلق آدم بيديه، وأسجد له ملائكته، فالهاء راجعة في قوله: «على صورته» عند الأكثرين إلى المضروب، وهذا حسن(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

معناه: ولقد خلقنا أباكم آدم ثم صوّرناه، وإنما قلنا هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب، لأن الذي يتلو ذلك قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾، ومعلوم أن الله تبارك وتعالى قد أمر الملائكة بالسجود لآدم، قبل أن يصوِّر ذريته في بطون أمهاتهم، بل قبل أن يخلُق أمهاتهم»(٣).

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

---

(١) ينظر: ابن بطال، **شرح صحيح البخاري**. ج٩: ص٧.

(٢) ينظر: **المصدر نفسه**. ج٧: ص٧٠. والعيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين (ت ٨٥٥هـ). **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج١٣: ص١١٦.

(٣) الطبري، **جامع البيان**. ج١٢: ص٣٢١.

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣].

والمراد بقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: فخلقكم في أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم، ولم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان، حيث خلق كلاً منكم منتصب القامة بادي البشرة متناسب الأعضاء والتخطيطات متهيأ لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات، ولم يجعلكم كالبهائم منكوسين تمشون على أربع[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٧]. وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ خلاف بين القرّاء في قراءة (فَعَدَلَك)، فقرأه الكوفيون بالتخفيف والباقون بالتشديد[2]، والامام الطبري[3] حسّن القراءة بالتشديد وعلّله تعليلاً حسناً.

حيث قال: «الذي خلقك أيها الإنسان فسوّى خلقك ﴿فَعَدَلَكَ﴾ واختلفت القرَّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرَّاء المدينة ومكة والشام والبصرة (فعدّلك) بتشديد الدال، وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة بتخفيفها، وكأن من قرأ ذلك بالتشديد وجَّه معنى الكلام إلى أنه جعلك معتدلاً معدّل الخلق مقوَّماً، وكأن الذين قرأوه بالتخفيف، وجَّهوا معنى الكلام إلى صرفك وأمالك إلى أيّ صورة شاء، إما إلى صورة حسنة، وإما إلى صورة قبيحة، وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان في قراءة الأمصار صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، غير أن أعجبهما إليّ أن أقرأ به قراءة من

---

(١) ينظر: البيضاوي، **أنوار التنزيل**. ج٥: ص٦٢. وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**. ج٧: ص١٥٦. والزمخشري، **الكشاف**. ج٦: ص١٣٢. والآلوسي، **روح المعاني**. ج١٢: ص٣٣٥. والصابوني، **صفوة التفاسير**. ج٣. ص٩٥.

(٢) ينظر: سالم، **فريدة الدهر**. ج٤: ص٧١٥.

(٣) سبق ترجمته.

قَرَأ ذلك بالتشديد، لأن دخول «في» للتعديل أحسن في العربية من دخولها للعدل، ألا ترى أنك تقول: عدّلتك في كذا، وصرفتك إليه، ولا تكاد تقول: عدلتك لي كذا وصرفتك فيه، فلذلك اخترت التشديد»[١]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

والمراد من الإنسان هذه الماهية (أي ماهية الإنسان وكينونته) والتقويم تصبير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل، يقال: قَوَّمْتُهُ تَقْوِيماً فَاسْتَقَامَ وَتَقَوَّمَ، وقوله تعالى: (أحسن) أي أنه تعالى خلق كل ذي روح مكباً على وجهه إلا الإنسان فإنه تعالى خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده وكان بعض الصالحين يقول: إلهنا أعطيتنا في الأولى أحسن الأشكال، فأعطنا في الآخرة أحسن الفعال، وهو العفو عن الذنوب، والتجاوز عن العيوب[٢].

ومن التكريم أيضاً حرمة الإنسان ميتاً كحرمته حياً، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢١]. أي جعله ذا قبر يواري فيه إكراماً له، ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله السباع والطير، أو يستقذره من يراه، فأمر الله تعالى بدفنه، لذا أجمع العلماء على أن للميت على ذويه وإخوانه حقوق أربعة، هي فروض كفائية[٣] بالإضافة إلى حق أو واجب التجهيز: وهي الغسل، والتكفين والصلاة عليه ودفنه[٤]. وعن عائشة (رضي اللّه عنها) قالت: قال رسول الله (ﷺ) «**كسرُ عظمِ الميتِ ككسرهِ حياً**»[٥].

---

(١) الطبري، **جامع البيان**. ج٢٤: ص٢٦٩-٢٧٠. (بتصرف)

(٢) ينظر: الفخر الرازي. **التفسير الكبير**. ج٣٢: ص٢١٢

(٣) الفرض أو الواجب الكفائي: هو ما يطلب الشارع حصوله من مجموع المكلفين بدون النظر إلى مكلف بعينه بحيث إذا فعله واحد منهم سقط الطلب عن الباقين. ينظر: عبد الرحمن، فاضل عبد الواحد. **الأنموذج في أصول الفقه**. بغداد: دار الحكمة، (١٩٨٧م). ص٣٧.

(٤) ينظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**. ج٥: ص٤٣٩. والآلوسي، **روح المعاني**. ج١٥: ص٢٤٧. والاشقر، **زبدة التفسير**. ص٧٩٢. والزحيلي، **الفقه الإسلامي وأدلته**.ج٢: ص١٤٨٣.

(٥) سبق تخريجه.

المبحث الثاني

أطوار خلق الإنسان

المطلب الأول: آيات الخلق

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز وفي آيات كثيرة كيفية خلق الإنسان ومراحل الخلق، تذكيراً بهذه النعمة العظيمة، والتي تدل على قدرته سبحانه وتعالى العظيمة، وفي هذا المطلب نذكر من هذه الآيات ما تناسب وموضوع بحثنا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ [النحل: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر: ١١].

وقال تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر: ٦].

المطلب الثاني: تفسير الآيات وآراء العلماء

نأخذ من الآيات التي مرّت سورة [الحج: ٥]، وسورة [المؤمنون: ١٢- ١٤] تفسيراً ودلالة على الخلق، وذلك لأن هذه الآيات فيها تفاصيل مراحل الخلق، حيث يُستنبط من هذه الآيات الكريمات بأن الإنسان خُلق على سبعة أطوار:

* **الطور الأول**: قوله: ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ «وفيه وجهان: أحدهما: إنا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه السلام من تراب، والثاني: أن خلقة الإنسان من المني ودم الطمث وهما إنما يتولدان من الأغذية، والأغذية إما حيوان أو نبات وغذاء الحيوان ينتهي قطعاً

للتسلسل إلى النبات، والنبات إنما يتولد من الأرض والماء"[1].

ورجح الشنقيطي[2] الوجه الأول وقال ببطلان الوجه الثاني، حيث قال فلما كان أصلهم الأول من تراب، أطلق عليهم أنه خلقهم من تراب لأن الفروع تبع للأصل، وقد ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أطوار خلق الإنسان، فالتراب هو الطور الأول[3].

* **الطور الثاني:** قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ**﴾ والنطفة اسم للماء القليل أي ماء كان، وهو ههنا ماء الفحل، فكأنه سبحانه يقول: أنا الذي قلبت ذلك التراب اليابس ماءً لطيفاً، مع أنه لا مناسبة بينهما، أو ثم أنشأناكم من نطفة آدم والنطفة تقع على قليل الماء وكثيره[4].

ومن المفسرين من قال: «إن النطفة مختلطة من ماء الرجل وماء المرأة، خلافاً لمن زعم أنها من ماء الرجل وحده[5].

وقد أشار القرآن الكريم إلى النطفة باعتبارها المادة التي يتم منها هذا التكوين، ووردت كلمة «**نطفة**» في القرآن الكريم في اثني عشر موضعاً، إلّا أن المني وحده لا يكفي لتكوين الإنسان جنيناً في رحم الأم، فهنا يجب ألا يقتصر على المني الذكري أي ماء الرجل، وإنما يجب أن يمتد ليشمل ماء المرأة، فالنطفة المذكرة «الحيوان المنوي»، والنطفة المؤنثة «البويضة الأنثوية»، يندمجان معاً ليتكون من كلٍّ منهما نطفة جديدة مخصبة، هي التي يسميها علم الأجنة بـــ«اللاقحة» وهي تمثل الطور الأول من تكوين الجنين ويعبر القرآن الكريم عن هذه العملية تعبيراً معجزاً بقوله تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا**﴾ [الإنسان: ٢]، والأمشاج هي الأخلاط الناتجة عن امتزاج ماء الرجل بماء المرأة[6].

---

(١) الفخر الرازي. **التفسير الكبير**. ج٢٣: ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) سبق ترجمته.

(٣) ينظر: الشنقيطي، **أضواء البيان**. ج٤: ٢٦٥-٢٦٦.

(٤) ينظر: الطبري، **جامع البيان**. ج١٨: ص٥٦٧. وابن عطية، **المحرر الوجيز**. ج٤: ص١٠٧. والفخر الرازي، **التفسير الكبير**. ج٢٣: ص٢٠٤.

(٥) ينظر: الشنقيطي، **أضواء البيان**. ج٤: ص٢٦٦.

(٦) ينظر: صادق، آمال. وأبو حطب، فؤاد. **نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين**. ط٤. مكتبة الأنجلو المصرية. ص٣٨.

* **الطور الثالث**: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٍ﴾ العلقة قطعة الدم الجامدة أو الدم العبيط، أي الطري، ولا شك أن بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة[1].

وهناك من فسّر «**العلقة**» بأنها: «جنين يعلق بجدار الرحم كأنه دودة، ومنه قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢] أي: حيوان يعلق بجدار الرحم كأنه دودة»[2].

* **الطور الرابع**: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ فالمضغة اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ، نحو الغُرْفَة والأكْلَة بمعنى المغروفة والمأكولة[3].

اختار الطبري[4] في قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ قول من قال: المخلقة المصورة خلقاً تاماً، وغير مخلقة: السِّقط قبل تمام خلقه، لأن المخلقة وغير المخلقة من نعت المضغة والنطفة بعد مصيرها مضغة، لم يبق لها حتى تصير خلقاً سوياً إلا التصوير، وذلك هو المراد بقوله ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ خلقاً سوياً، وغير مخلقة بأن تلقيه الأم مضغة ولا تصوّر ولا ينفخ فيها الروح[5].

وقال الماوردي[6] «فيه أربعة تأويلات: أحدها: أن المخلقة ما صار خلقاً، وغير مخلقة ما دفعته الأرحام من النطف فلم يصير خلقاً، والثاني: معناه تامة الخلق وغير تامة الخلق، والثالث: معناه مصورة وغير مصورة كالسقط، والرابع: يعني التام في شهوره، وغير التام»[7].

---

(١) ينظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**. ج٤: ص١٠٧. والفخر الرازي، **التفسير الكبير**. ج٢٣: ص٢٠٤. والقرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**. ج١٢: ص٦. وابن عاشور، **التحرير والتنوير**. ج١٧: ص١٩٧. والشنقيطي، **أضواء البيان**. ج٤: ص٢٦٦.

(٢) الجمل، **معجم وتفسير لغوي**. ج٣: ص١٥٣.

(٣) ينظر: الفخر الرازي، **التفسير الكبير**. ج٢٣: ص٢٠٤. وابن عادل، **اللباب**. ج١٤: ص١٨.

(٤) سبق ترجمته.

(٥) ينظر: **الطبري، جامع البيان**. ج١٨: ص٥٦٨-٥٦٩.

(٦) سبق ترجمته.

(٧) الماوردي، **النكت والعيون**. ج٤: ص٧.

ورجح الفخر الرازي[1] القول الثاني بأن يكون المراد من تمت فيه أحوال الخلق ومن لم تتم، كأنه سبحانه قسم المضغة إلى قسمين: أحدهما: تامة الصور والحواس والتخاطيط وثانيهما: الناقصة في هذه الأمور، وهو أقرب لأنه تعالى قال في أول الآية: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ وأشار إلى الناس فيجب أن تحمل مخلقة وغير مخلقة على من سيصير إنساناً وذلك يبعد في السقط لأنه قد يكون سقطاً و لم يتكامل فيه الخلقة[2].

وأيده ابن عاشور[3] في ذلك حيث قال: «قوله تعالى: مخلقة وغير مخلقة صفة مضغة، وذلك تطور من تطورات المضغة، أشار إلى أطوار تشكل تلك المضغة فإنها في أول أمرها تكون غير مخلقة، أي غير ظاهر فيها شكل الخلقة، ثم تكون مخلقة، والمراد تشكيل الوجه ثم الأطراف، ولذلك لم يذكر مثل هذين الوصفين عند ذكر النطفة والعلقة، إذ ليس لهما مثل هذين الوصفين بخلاف المضغة، وإذ قد جعلت المضغة من مبادئ الخلق تعين أن كلا الوصفين لازمان للمضغة، فلا يستقيم تفسير من فسر غير المخلقة بأنها التي لم يكمل خلقها فسقطت»[4].

أما قوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ «أي كمال قدرتنا وحكمتنا في تصريف خلقكم ولتستدلوا بقدرته في ابتداء الخلق على قدرته على الإعادة»[5].

وقوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول تعالى ذكره: «من كنا كتبنا له بقاء وحياة إلى أمد وغاية، فإنا نقرّه في رحم أمه إلى وقته الذي جعلنا له أن

---

(١) سبق ترجمته.

(٢) ينظر: الفخر الرازي، **التفسير الكبير**. ج٢٣: ص٢٠٤.

(٣) سبق ترجمته.

(٤) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**. ج١٧: ص١٩٨.

(٥) الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن (ت ٧٤١هـ). **لباب التأويل في معاني التنزيل**. تحقيق محمد علي شاهين. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية، (١٤١٥هـ). ج٣: ص٢٤٩.

يمكث في رحمها، فلا تسقطه، ولا يخرج منها حتى يبلغ أجله، فإذا بلغ وقت خروجه من رحمها أذنا له بالخروج منها، فيخرج، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(١).

* **الطور الخامس:** قوله: ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ﴾ «وإنما وحَّدَ الطفل لأن الغرض الدلالة على الجنس ويحتمل أن يخرج كل واحد منكم طفلاً»(٢).

* **الطور السادس:** قوله: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ﴾ والأشد كما جاء في معظم التفاسير هو كمال القوة والعقل والتمييز وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد وكأنها شدة في غير شيء واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع، والمراد والله أعلم ثم سهل في تربيتكم وأغذيتكم أموراً لتبلغوا أشدكم فنبه بذلك على الأحوال التي بين خروج الطفل من بطن أمه وبين بلوغ الأشد ويكون بين الحالتين وسائط، وذكر بعضهم أنه ليس بين حال الطفولية وبين ابتداء حال بلوغ الأشد واسطة حتى جوز أن يبلغ في السن ويكون طفلاً كما يكون غلاماً ثم يدخل في الأشد(٣).

* **الطور السابع:** قوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ «والمعنى أن منكم من يتوفى على قوته وكماله، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر وهو الهرم والخرف، فيصير كما كان في أول طفوليته ضعيف البنية، سخيف العقل، قليل الفهم، فإن قيل كيف قال: ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ مع أنه يعلم بعض الأشياء كالطفل؟ قلنا المراد أنه يزول عقله فيصير كأنه لا يعلم شيئاً لأن مثل ذلك قد يذكر في النفي لأجل المبالغة»(٤).

وقوله تعالى: ﴿... فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. «أي جعلها الله سبحانه متصلبة

---

(١) **الطبري، جامع البيان.** ج١٨: ص٥٦٩.

(٢) الفخر الرازي، **التفسير الكبير.** ج٢٣: ص٢٠٥.

(٣) ينظر: **المصدر نفسه،** ج٢٣، ص٢٠٥.

(٤) **المصدر نفسه.** ج٢٣: ص٢٠٥.

لتكون عموداً للبدن على أشكال مخصوصة ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ أي أنبتَ الله سبحانه على كل عظم لحماً على المقدار الذي يليق به ويناسبه ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي نفخنا فيه الروح بعد أن كان جماداً ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي استحق التعظيم والثناء، وقيل: مأخوذ من البركة، أي كثر خيره وبركته، والخلق في اللغة: التقدير، يقال: خلقت الأديم: إذا قسته لتقطع منه شيئاً، فمعنى ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾: أتقن الصانعين المقدّرين»[1].

والرسول (ﷺ) يبيّن هذه المراحل والمراتب من خلق الإنسان، فعن عبد الله[2] قال حدثنا رسول الله (ﷺ) وهو الصادق المصدوق: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّه أَرْبَعِينَ يَوْماً ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيّ أو سَعِيدٌ...**»[3]

وقال تعالى: ﴿... يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

فالجنين في بطن امه يتحول من طور إلى طور وفي ظلمات ثلاث، ظلمة الكيس الذي يغلف الجنين، وظلمة الرحم الذي يستقر فيه هذا الكيس، وظلمة البطن الذي تستقر فيه الرحم، والله تعالى يخلق هذه الخلية الصغيرة خلقا من بعد خلق، وعين الله ترعى هذه الخليقة وتودعها القدرة على النمو، والقدرة على التطور، والقدرة على الارتقاء، والقدرة على السير في تمثيل خطوات النفس البشرية كما قدر لها بارئها، وتتبع هذه الرحلة القصيرة الزمن البعيدة الآماد، وتأمل هذه التغيرات والأطوار وتدبر تلك الخصائص العجيبة

---

(١) الشوكاني، **فتح القدير**. ج٣: ص٥٦٥.

(٢) وهو عبد الله بن مسعود. ينظر: ابن رجب. **جامع العلوم والحكم**. ص١٥٣.

(٣) **متفق عليه**، البخاري. **صحيح البخاري**. كتاب بدء الخلق. باب ذِكرِ الملائكة. ح (٣٠٣٦). ج٣: ص١١٧٤. ومسلم. **صحيح مسلم**. كتاب القدَر. باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته. ح (٢٦٤٣). ص١٠٦٠.

التي تقود خطى هذه الخلية الضعيفة في رحلتها العجيبة، في تلك الظلمات وراء علم الإنسان وقدرته وبصره، هذا كله من شأنه أن يقود القلب البشري إلى رؤية يد الخالق المبدع، رؤيتها بآثارها الحية الواضحة الشاخصة، والإيمان بالوحدانية الظاهرة الأثر في طريقة الخلق والنشأة(١).

قال تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١].

فكما خلق الله تعالى آدم بمراحل خلق ذريته بمراحل أيضاً، حيث تبدأ بمرحلة النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم يرسل الله تعالى الملك لينفخ فيه الروح ويؤمر بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، وكل هذه لحكمة ارادها الله تعالى فتبارك الله حسن الخالقين، ولكي يعلم الإنسان كما كان موضعاً للعناية الإلهية في هذه المراحل سيكون أيضاً موضعاً للعناية والرعاية والتكريم الإلهي في الدنيا، وكذلك في الآخرة شريطة خضوعه وإطاعته له سبحانه.

---

(١) ينظر: قطب، **في ظلال القرآن**. ج٥: ص٣٠٣٩-٣٠٤٠.

المبحث الثالث

تكريم الإنسان بمهمته الدينية

إن الإنسان لا يمكن أن يشعر بالسعادة الحقيقية إلا عندما يصل إلى حقيقة مهمة، ألا وهي الغاية من خلقه ومهمته على هذه الأرض، فإذا بقي دون أن يكشف سر وجوده والغاية من خلقه ومهمته، تصبح حياته قلقاً، وخوفاً، واضطرابات نفسية، وضيقاً، وفي بعض الأحيان تؤدي به إلى الانتحار.

إن منهاج الله تعالى هو الذي يبين لنا هذه المهمة بصورها العامة في أربعة مصطلحات قرآنية ربانية نذكرها فيما يلي، فإن المصطلحات الأربعة مجتمعة تعرض المهمة من جميع جوانبها، ثم يُفَصِّلُ سبحانه وتعالى المهمة كلها بالتفصيل الأوفى، حتى لا يبقى لأحد عذر في عدم الوفاء بها(1):

۞ **أولاً - العبادة**: يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

۞ **ثانياً - الأمانة**: يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٢- ٧٣].

۞ **ثالثاً - الخلافة**: يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

---

(١) النحوي، عدنان علي رضا، **حتى نغير ما بأنفسنا**. ط١. الرياض: دار النحوي، (١٤٢٣هـ= ٢٠٠٢م). ص٦٥-٦٦.

۞ **رابعاً - العمارة:** يقول سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ [هود: ٦١].

المطلب الأول: العبادة(١)

فالقرآن الكريم يبيّن لنا أن العبادة بمفهومها العام هي التي لأجلها خلق الخلق وبها أرسل جميع الرسل، كما قال نوح لقومه، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

هذه الغاية، التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم(٢).

وبهذا لا يمكن أن يخرج أي شيء من نشاط الإنسان وأعماله، سواء كان ذلك في العبادات المحضة، أو في المعاملات المشروعة، أو في العادات التي طبع الإنسان على فعلها، ومن ذلك يتضح أن الدين كله داخل في العبادة، والدين منهاج الله جاء ليسع الحياة كلها، وينظم جميع أمورها من أدب الأكل والشرب وقضاء الحاجة إلى بناء الدولة، وسياسة الحكم، وسياسة المال، وشؤون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية

---

(١) سبق تعريفها.

(٢) ينظر: السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**. ص٨١٣.

في السلم والحرب[1].

يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

لقد كان الجيل الأول الذي رباه رسول الله (ﷺ) يفهم الحياة كلها على إنها عبادة، تشمل الصلاة والنسك وتشمل العمل كله، وتشمل لحظة الترويح كذلك، فلا شيء في حياة الإنسان كلها خارج من دائرة العبادة التي تنحصر فيها غاية الوجود الإنساني على هذه الأرض، وإنما هي ساعة بعد ساعة في أنواع مختلفة من العبادة، كلها عبادة وإن اختلفت أنواعها ومجالاتها ونطاقاتها، فالصلاة عبادة والنسك عبادة، والكدح عبادة، سواء كان كدحاً سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو فكرياً أو علمياً.. الخ[2].

وهكذا يقضون الحياة كلها في عبادة.. عبادة تشمل نشاط الروح كله، ونشاط العقل كله، ونشاط الجسد كله، ما دام هذا كله متوجهاً به إلى الله، وملتزماً فيه بما أنزل الله. وهذا هو المفهوم الصحيح للعبادة كما أنزله الله.. المفهوم الشامل الواسع العميق[3].

فالعبادة في الإسلام نظام متكامل لترقية الإنسان الخلقية، حتى يستحق هذا المقام الكريم ويؤدي التكليف الإلهي له على الوجه الأكمل، فأي إنسان يتحرك في أي اتجاه لتحقيق أية مصلحة اجتماعية يُعد عابداً لله[4].

وقال الامام الفخر الرازي[5] في تفسير قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

---

(١) ينظر: الصلابي، علي محمد الصلابي. **تبصير المؤمنين بـ(فقه النصر والتمكين) في القرآن الكريم**. الاسكندرية: دار الإيمان، (٢٠٠٢م). ص٢١٥-٢١٦.

(٢) ينظر: قطب، محمد. **مفاهيم ينبغي أن تصحح**. ط٨. القاهرة- مصر: دار الشروق، (١٩٩٤م). ص٢٠٣.

(٣) ينظر: **المصدر نفسه**، ص٢٠٥.

(٤) ينظر: عبد الحميد، **الإسلام والتنمية الاجتماعية**. ص٦٥.

(٥) سبق ترجمته.

و«من عرف فوائد العبادة طاب له الاشتغال بها، وثقل عليه الاشتغال بغيرها، وبيانه من وجوه: الأول: أن الكمال محبوب بالذات، وأكمل أحوال الإنسان وأقواها في كونها سعادة اشتغاله بعبادة الله، فإنه يستنير قلبه بنور الإلهية، ويتشرف لسانه بشرف الذكر والقراءة، وتتجمل أعضاؤه بجمال خدمة الله، وهذه الأحوال أشرف المراتب الإنسانية والدرجات البشرية، فمن وقف على هذه الأحوال زال عنه ثقل الطاعات وعظمت حلاوتها في قلبه. الثاني: أن العبادة أمانة بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. وأداء الأمانة واجب عقلاً وشرعاً، بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وأداء الأمانة صفة من صفات الكمال محبوبة بالذات[(١)].

«ومن هنا فإن النظريات الروحية الفلسفية التي دخلت في المجتمع الإسلامي عبر التاريخ، والتي أدت إلى الانهزامية في الحياة والرهبانية السلبية، تتعارض مع النظام الروحي الإسلامي الذي كله تربية وبناء وحركة لأن مملكة الإنسان هي في هذه الحياة على الأرض وليست في عوالم روحية موهومة، يقول سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [البقرة: ٣٠]»[(٢)].

ومما سبق يُعلم إن كل شيء في الحياة ينقلب إلى عبادة خالصة، إذا كان قصد العمل فيه طاعة الخالق، وفيه تحقيق أكبر قدر ممكن من المنفعة الذاتية والاجتماعية المشروعة، وكل حركة الإنسان محسوبة عليه سلباً وإيجاباً، سلباً إذا عادت عليه بالضرر أو على مجتمعه، وإيجاباً إذا عادت عليه بالنفع أو على مجتمعه، وكذلك جميع ما يقوم به الإنسان يدخل ضمن العبادة بمعناها الشامل الواسع، إذا قصد بذلك العمل إرضاء الله سبحانه وتعالى.

---

(١) الفخر الرازي، **التفسير الكبير**. ج١: ص٢١٣. (بتصرف)

(٢) ينظر: عبد الحميد، **الإسلام والتنمية الاجتماعية**. ص٦٦.

المطلب الثاني: الأمانة

تدخل الأمانة تحت المفهوم الشامل للعبادة والتي سبقت ولكن بقي أن نذكر بعض الآيات التي صرحت بكلمة الأمانة وآراء بعض المفسرين فيها:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

«والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور»[1].

فالأمانة هي الفرائض التي ائتمن الله عليها العباد، وقد اختلف في تفاصيل بعضها على أقوال: فقال ابن مسعود (رضي الله عنه): هي في أمانات الأموال كالودائع وغيرها، وروى عنه أنها في كل الفرائض وأشدها المال، وعن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: الأمانة الفرائض، عرضها الله عز وجل على السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم، وأن ضيعوها عذبهم. فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيما لدين الله عز وجل ألا يقوموا به، ثم عرضها على ادم فقبلها بما فيها[2].

وهذا النوع من التكليف ليس في السموات ولا في الأرض، لأن الأرض والجبل والسماء كلها على ما خلقت عليه، وذلك لأن الجبل لا يطلب منه السير، والأرض لا يطلب منها الصعود، ولا من السماء الهبوط ولا في الملائكة لأن الملائكة وإن كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الإنسان بأمر موافق لطبعه[3].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]. إن الله تعالى يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور وغير

---

(١) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**. ج١٤: ص٢٥٣.

(٢) ينظر: **المصدر نفسه**، ج١٤: ص٢٥٤ وما بعدها.

(٣) ينظر: الفخر الرازي، **التفسير الكبير**. ج٢٥: ص١٨٧.

ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك، فأمر الله عز وجل بأدائها فمن لم يفعل ذلك في الدنيا اخذ منه ذلك يوم القيامة[1].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ ﴾ «ما اؤتمنتم عليه من الدين وغيره وانتم تعلمون»[2].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المعارج: ٣٢]. «أي إذا اؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدوها إلى أهلها وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك»[3].

والذي تبين هنا عند تفسير آيات الأمانة، أنها من الأعمال التي يحبها الله تعالى وهي من أعمال البر التي أوصى بها الله تعالى ورسوله المؤمنين بالله ورسوله وباليوم الآخر، وهي صفة محمودة، بل صفة لابد منها، وبدونها لا يمكن للمجتمع أن ترتاح له البال، فبها تنهض المجتمعات وتطمئن القلوب وتنتشر الثقة بين شرائح المجتمع وتنهض المؤسسات، وهي تدخل من جملة الصفات والأعمال التي تتكون منها العبادة.

(١) ينظر: الصابوني، **مختصر تفسير ابن كثير**. ج١: ص٤٠٦.

(٢) خلوف، علي بن مصطفى. **مهذب تفسير الجلالين**. للإمامين جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي. ط١. دمشق: مؤسسة الرسالة، (٢٠٠٠م). ص١٨٠.

(٣) **المصدر السابق**، ج٢: ص٥٥٧.

المبحث الرابع

تكريمه بمهمته على الارض

المطلب الأول: الخلافة(1)

من أهم الواجبات والمهمات التي كلف بها الإنسان على الأرض هي واجب الخلافة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

إن تكامل الإنسان وترقيه لاقترابه من الله لا يكون إلا عبر منهاج العبادة، ولذلك قال تعالى في بيان قطعي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ووظيفة الخلافة التي جعلت غاية للوجود الإنساني تعني بما تقدم من المعاني مباشرة الإنسان للكون بالروح والجسم: اعتباراً به واستثماراً لمنافعه وخيراته كل ذلك تكميلاً للذات في بعدها الفردي والجماعي وترقية لها في وجهتها إلى الله تعالى عبر منهاج العبادة ائتماراً بما أمر وانتهاء بما نهى(2).

ولا زال القرآن الكريم بعد الإعلان الأول يعظم هذه المهمة ويبين محتواها وأهدافها وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ﴾ [فاطر: ٣٩].

والمراد بالخلافة إما الخلافة من جهته سبحانه في إجراء أحكامه وتنفيذ أوامره بين الناس وسياسة الخلق، لكن لا لحاجة به تعالى إلى ذلك بل لقصور استعداد المستخلف عليهم وعدم لياقتهم لقبول الفيض بالذات، وإما الخلافة ممن كان في الأرض قبل ذلك فتعم حينئذ الجميع(3).

---

(١) تم تفسيرها وذكر آراء العلماء فيها، ص٤٩-٥٠.

(٢) ينظر: النجار، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**، ص٦٢-٦٣.

(٣) ينظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**. ج١: ص٨١-٨٢.

فالخليفة هنا الذي يخلف صاحب الشيء في التصرف في مملوكاته ولا يلزم أن يكون المخلوف مستقرا في المكان من قبل، فالخليفة آدم وَخَلَفِيَّتُهُ قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض، بالإلهام أو بالوحي وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي، فهي إذن المهمة الوجودية للإنسان لتنفيذ مراده في الأرض وإجراء أحكامه فيها وهذا معناه أن يكون الإنسان سلطانا في الكون بغاية تطبيق المهمة التي كلفه بها المستخلِف(١).

ومضمون «الأمانة» الإلهية، وبالتالي مضمون «الخلافة»، هو بناء الثقافة والحضارة والسمو بها، إن محور «الخلافة» هو تحقيق السلام والأمن على الحياة والممتلكات وتنظيم البشرية في مجتمعات منظمة قادرة على إنتاج الطعام وعلى معالجته وتخزينه وتوزيعه على الجميع بشكل كاف كماً ونوعاً، وتهيئة المأوى والدفء والراحة والاتصالات واليسر، وإعداد ما يكفي من الأدوات اللازمة لتحقيق هذه الأهداف، وأخيراً، تهيئة الفرص للتعليم وتحقيق الذات وللتمتع الترفيهي والجمالي. وهذا مرادف لإقامة ثقافة وحضارة ولبناء الحياة في هذا الوجود(٢).

ويأتي هذا الاستخلاف على أنه عمل سياسي (ادارة شؤون العباد) في المقام الأول، وكثيرا ما ربط القرآن الكريم الاستخلاف بإقامة السلطة السياسية وبضمان الأمن والسلام.

قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ** ﴾ [النور: ٥٥].

قال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

---

(١) ينظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**. ج١: ص٣٩٩. والنجار، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**. ص٦٢ -٦٣

(٢) ينظر: الفاروقي، إسماعيل راجي. **أسلمة المعرفة: المبادئ العامة وخطة عمل**. ترجمة عبد الوارث سعيد. الكويت: دار البحوث العلمية، (١٩٨٣م). ص٥٩.

وبالقضاء على أعداء الله واستبدال نُظم حكمهم الظالمة بحكم الله في الأرض قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣-١٤].

إذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلِّمَ لهذا الكائن الجديد في الوجود، زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله -بإذن الله- في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه[1].

هذه المهمة التي كلّف الله به الإنسان، وجعلها غاية لوجوده تنبني على عنصر أساسي هو معنى الخليفة عن الله، ومن هذا العنصر تستمد جوهر حقيقتها وكل أبعادها: فالخَلَفية تقتضي أن يكون الهم الأكبر للخليفة ترقّيه نحو مستخلفه، واقترابه منه ليحقق معنى الاستخلاف على الوجه الأفضل، ولذلك فان الإنسان الخليفة جوهر خلافته أن يحصر همه وجهده في الاقتراب من الله مستخلفه، وذلك بالعمل الدائب والكدح المستديم لترقية ذاته وتنميتها حتى يبلغ من الكمال إلى الدرجة التي ذكرها الله في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

المطلب الثاني: العمارة

إن محور الدين الذي ألزم الله به عباده، بما فيه من نسك وعبادات، إنما هو تزكية النفس البشرية، وتطهيرها مما قد يعلق بها عادة من الأدران يقول سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

---

(١) ينظر: قطب، **في ظلال القرآن**، ج١: ص٥٦

وليست تزكية النفس بدورها، إلا الشرط الأساسي لتحمل الإنسان لمسؤولياته الحضارية بصدق وجد، فبمقدار ما تتزكى النفس وتصفو من كدوات الأهواء والرعونات، يُخلص صاحبها في تحمل كل ما يجب أن يتحمله في سبيل بني جنسه من المهام والواجبات المختلفة، وبمقدار ما تنطوي تلك النفس على شوائبها ورعوناتها، يغدو صاحبها أداة للإفساد في الأرض، ولإهلاك الحرث والنسل، ابتغاء مصالحه وأهوائه الشخصية، مهما تحلى ظاهره بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة[1].

فالوظيفة التي يحملها القرآن للإنسان في الحقيقة، إنما هي عمارة الأرض، بمعناها الشامل، وهي تشمل فيما تشمل، إقامة مجتمع إنساني سليم، وإشادة حضارية إنسانية شاملة، ليكون الإنسان بذلك مظهراً لعدالة الله تعالى وحكمه في الأرض، ولكن ليس بالقسر والإجبار، بل بالتعليم والاختيار، وينص القرآن في أكثر من موطن على هذه الوظيفة التي حملها الإنسان، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. «أي كفلكم بعمارتها»[2].

«فلأجل منافعهم في الأرض قيدت نعمة الخلق بأنها من الأرض التي أنشئوا منها، ولذلك عطف عليه واستعمركم فيها، والاستعمار: الإعمار، أي جعلكم عامريها، فالسين والتاء للمبالغة كالتي في استبقى واستفاق، ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع، لأن ذلك يعد تعميرا للأرض، حتى سمي الحرث عمارة لأن المقصود منه عَمْرُ الأرض»[3].

ويقول تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

ويقول سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

---

(١) ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان. **منهج الحضارة الإنسانية في القرآن**. ط١. دمشق: دار الفكر، (١٩٨٢م). ص٢٥-٢٦.

(٢) **المصدر نفسه**، ص٢٦.

(٣) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**. ج١٢: ص١٠٨.

فهذه الآيات ومثلها في القرآن كثير، تنطوي على تعريف صريح بالمهمة الأساسية التي كلف الإنسان بها في حياته الدنيوية هذه أن ينهض بها ألا وهي تحقيق جامعة إنسانية فعّالة، في سبيل النهوض بعمارة هذا الكوكب الأرضي عمارة كلية شاملة لكل ما تتسع له كلمة «العمارة» من المعاني المادية والعلمية والاقتصادية، ومن هنا شرّف الله الإنسان الذي قبل النهوض بهذه المهمة على الوجه الذي رسمه الله تعالى له بلقب «الخليفة» وأعطاه صفة «الإمامة» وخلع عليه خلعة التكريم[1].

«وهكذا يتبين أن مدار الإسلام (هو دين الله المطلق لهذه الخليقة منذ نشأتها) على النهوض بعمارة الأرض على خير وجه، وإنما شرع الله فيه ما شرع من جزئيات الأحكام السلوكية أو الالزامات الاعتقادية، تيسيراً للنهوض بهذا الواجب المقدس على النحو الذي أمر به الله عز وجل»[2].

فإن الله سبحانه وتعالى استخلف البشر في الأرض بقصد عمارة الكون وإنمائه، واستغلال كنوزه وثرواته، والناس في ذلك شركاء، والمسلمون ينفذون أمر الله ومقاصده، قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا أَيْ: «وَجَعَلَكُمْ عُمَّاراً فِيهَا منَ الْعُمْرَانِ،... وَالْمُرَادُ أَنَّهُ هُوَ الْمُنْشِئُ لِخَلْقِكُمْ وَالْمُمِدُّكُمْ بِأَسْبَابِ الْعُمْرَانِ وَالنِّعَمِ فِيهَا»[3].

كما هو واضح من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

---

(١) ينظر: البوطي، **منهج الحضارة الإنسانية**. ص٢٦، ٢٧.

(٢) **المصدر نفسه**. ص٢٧.

(٣) رشيد رضا، **تفسير المنار**. ج١٢: ص١٢١-١٢٢.

فكما أن الالتزام العام بفروض الكفاية يؤدى إلى التضامن بين أبناء الأمة، كذلك فإن الإنسان بالعمل يكون قدوة للآخرين وقد جمع النبي (ﷺ) ذلك في الحديث الآتي:

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّه مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[(١)].

«والمراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداماً على العدو في الجهاد وأسرع خروجاً إليه وذهاباً في طلبه وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في كل ذلك واحتمال المشاق في ذات الله تعالى وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات وأنشط طلباً لها ومُحَافَظَةً عليها ونحو ذلك وأما قوله ﷺ وفي كل خير فمعناه في كل من القوي والضعيف خير لاشتراكهما في الإيمان مع ما يأتي به الضعيف من العبادات»[(٢)].

لذا فإن عمارة الأرض واستغلالها، يتقيدان في الإسلام بطاعة الله والاهتداء بهديه والامتناع عمّا نهى عنه، والاعتقاد بأن الناس جميعاً شركاء في المنتجات الطبيعة المباحة، فكان لا بد لهم من التراحم والتعاون في العمل والانتاج (العطاء) بدون تخصيص، أو تمييز البشر في الجنس أو اللون أو العنصر.

ويقدم الإسلام أروع صورة لعمارة الأرض في ظل ثقافة التوحيد لله والاستخلاف للإنسان، في داخل إطار المشروعية العليا الإسلامية، ألا وهى العدل المستمد من التوحيد، فكما أن الإسلام دينٌ الدعوة للتراحم والمودة فإنه كذلك دينٌ يدعو للعمل والإنتاج، لتعمير الكون، حتى يعيش الإنسان في خير وسعادة.

---

(١) مسلم. **صحيح مسلم**. كتاب القدر. باب في الامر بالقوة وترك العجز. ح (٢٦٦٤). ص١٠٦٩. وابن ماجه. **سنن ابن ماجه**. المقدمة. باب في القدر. ح (٧٩). ج١: ص٣١.

(٢) النووي، **المنهاج**. ج١٦: ص٢١٥.